سعادة ...

قصة لغي دوموباسان

ترجمة الآنسة سميرة عزام

كان الوقت أصيلاً قبل ان تتألق عيون المصابيح . . و « الفيلا » تواجه البحر ، والشمس قد اختفت بعد ان سحبت ألوانها الحمراء على صفحة السماء . اما « المتوسط » فقد بدا رائعاً ساكناً متألقاً كطبق من الفضة جديد . وكان حديثنا يدور حول « الحب » ذلك الموضوع الأزلي الذي شبع من قبلنا حديثاً عنه فما تركوا لنا جديداً نقوله . . والذي سيتحدث عنه من يخلفوننا فلا ينتهون . . وقد أضفى المكان علينا جواً من الشاعرية فراحت كلماتنا تنساب انسياباً رفيقاً وكان لكلمة « الحب » تخرج من فم الرجال عميقة جياشة ومن شفاه النسوة المترفات منغومة رقيقة، سحر انتشت به جنبات الصالون.

هل يعيش الحب طويلاً فلا يقتله الملل والفتور ؟

وقال بعضنا مؤكداً « نعم » فعارضتهم « لا » الآخرين . .

وأوردنا الأمثلة، وسقنا البراهين وتحمس كل لوجهة نظره . . وثارت في نفوس البعض شجون ليس من سبيل الى البوح بها .

وفجأة قال احدنا وكانت عيناه مركزتين على الأفق البعيد : « انظروا ». ونظرنا واذا في البحر على مقربة من خط الأفق كتلة رمادية ضخمة . وانتصبت النسوة واقفات لينظرن هذا الشيء الذي برز فجأة من الصفحة الرائقة .

وقال بعضنا : « هذه جزيرة كورسيكا تبدو هكذا مرتين او ثلاثاً في العام عندما يكون الهواء ساكناً والجو خلواً من الضباب . . »

وحدقنا جيداً فميزنا قمم جبالها، وظللنا هكذا مذهولين لحظات لهذه الدنيا التي طالعتنا وسيطر علينا نفس شعور كولمبس عندما تبدت له سواحل الدنيا الجديدة .

وهنا تقدم شيخ ممن ظلت شفاههم حتى الساعة مطبقة وقال : « انظروا . . انني أعي من ذكريات هذه الجزيرة التي برزت لتفحمنا بالبرهان القاطع . . قصة حب سعيد خالد اليكم بها :

قبل أعوام خمسة سافرت الى كورسيكا ، هذه الجزيرة التي قلما نفكر في زيارتها والتي نجهلها رغم انها تتراءى لنا احياناً من ساحل فرنسا الجنوبي . . شأنها الليلة . تصوروا عالماً لا تزال فيه صورة للبدائية الأولى . . سلسلة جبال تفصلها أودية سحيقة وتغطيها أحراج كثة ، تربة عذواء رغم تلك القرى المتناثرة هنا وهناك . لا ثقافة ولا مدنية ولا شيء من أسباب الفن والتطور حتى كأني بالقوم هناك تعوزهم استجابة الانسان الفطرية الى دواعي الابداع ، وكأنما جيرة الجزيرة لايطاليا ايطاليا التي ينطق كل حجر فيها بعظمة الفن، لم تنفع في ان تحرك في اهلها قوة الخلق .

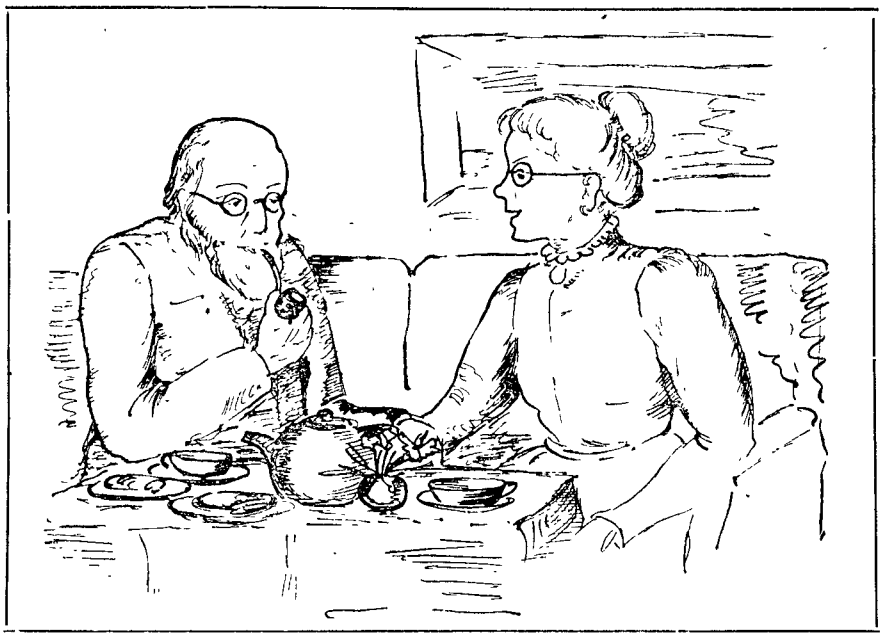

إن الانسان في كورسيكا لا يزال بحيا في بيت لم تلمسه أصابع التشذيب ، ولا تزال تعشش في رأس هذا الانسان معتقدات الأولين ، ولا تزال الصرامة والخشونة بعض صفاته . . ولكنهم — قول الحق — الى جانب ذلك كرماء يحبون الضيف ويهبون صداقتهم كل من يحمل لهم شعوراً من الطيبة .

وهكذا قضيت في الجزيرة شهراً شعرت خلاله بانني في طرف قصي من العالم ، وقد انقطعت بيني وبينه اسباب الحضارة

فلا فنادق ولا حانات ولا طرق ممهدة معبدة حتى اذا كان الليل، تحتم عليّ ان أطرق اول باب اطلب طعاماً وماء ويحتويني سواد الليل . وفي الصباح أنطلق في سبيلي بعد ان أشد على يدمضيفي الممدودة . وفي ذات ليلة وبعد مسير عشر ساعات وصلت الى مسكن قام منفرداً على حافة الوادي تحيط به الغابات واشجار الكستناء الباسقة القديمة وفي ساحة الكوخ نبتت مزروعـــاتٌ أغلب الظن انها كانت مورد الطعام الوحيد لساكنيه .

وكانت المرأة التي استقبلتني عجوزاً على ثيابهـا مسحة من اناقة ، على غير شأن الكورسيكيات ، وكان الرجل يجلس الى كرسي من القش فنهض لي ترحيباً ، ثم عاد فجلس دون ان يتفوه بكلمة واحدة وقالت لي العجوز : « اعذره فهـــو أصم انه في الثانية والثمانين » . .

وكانت تتحدث إلي بلهجة فرنسية اصيلة اثارت دهشتي .

سألتها : أكورسيكية انت ؟

قالت : لا . . ولكنني صرفت هنا مايقرب من خمسين عاماً . .

وانتفضت في ضيق . . كيف استطاعت هـذه المرأة ان تصرف من عمرها كل هذه الأعوام في جحر كهذا . .

واقبل بعد قليل طارق جديد من الرعاة يجر وراءه قطيعاً ، فانضم الينا ولم تلبث العجوز ان دعتنا الى طعام كان عبارة عن حساء ثخين من مزيج البطاطس والكرنب والدهن .

وما ان فرغت من طعامي حـتى قمت فجلست الى جانب الباب ، وقد لفني شعور موحش كذلك الذي يصيب المسافرين في الأماكن المنعزلة الصامتة فيثير فيهم لوناً من الأسى والحنين . وجلست أتأمل ما حولي وقـد تضاءل الوجود العظيم في نفسي فبات صغيراً ، وأحسست بالوحدة التي تلف قلوبنا جميعاً ، وان كنا نخدع نفوسنا بالأمنيات والأحلام التافهة .

وانضمت إليّ العجوز بعد قليل ، ومضت تسألني بدافـع الفضول المترسب في أعماق كل بشري :

— إذن فأنت قادم من فرنسا ؟

— نعم انني مسافر ينشد تغييراً في الجو والمناظر والأشياء .

— هل انت باريسي ؟

— كلا ، انني من « نانسي »

وشعرت بان المرأة ارتعشت قليلاً حين سمعت عبـــارتي الأخيرة . . او هكذا خيـل إلي . . ورددت المرأة في صوت خفيض بطيء :

- من « نانسي » اذن . .

هنا ظهر الرجل العجوز على الباب وبدا كمن لا يحسّ بمن حوله شأن الصُمّ . فقالت المرأة :

— استمرّ ، فوجوده او عدمه سيان . . انه لا يسمع . .

وعادت تسأل : — لا شك انـك تعرف أناساً كثيرين في نانسي ؟

— اوه طبعاً ، أكاد أعرفهم فرداً فرداً .

— هل تعرف أسرة « سانت الـيز ؟ »

— اعرفهم جيداً ، كانوا اصدقاء ابي .

— ما اسمك ؟

وعرّفتها باسمي فحدجتني بامعان ، وعـادت تقول بصوت عميق تحركه الذكريات :

— اجل ، اجل لقد تذكرت . . وماذا من أمر أسرة بريزمار ؟

سعيد فريحه

الذي قدم لك مجلتك المفضلة

الصيّاد

يقدم لك اليوم كتابك المفضل

جعبة الصيّاد

اطلبه من جميع المكتبات

- لقد مات افرادها جميعاً .

– حقاً .. وآل سيرمونت هل تعرفهم ؟

– اجل ، لقد كان عميد الاسرة الاخير جبزالاً ..

هنا ارتجفت المرأة تأثراً وانفعالاً ، واعترتها تلك الحالة التي تأخذ بنا جميعاً حين نشعر ان في اعماق نفوسنا شيئاً ما ، يوشك ان يقفز الى شفاهنا .

– نعم هنري دي سيرمونت .. اعرفه جيداً فهو اخي !

ورفعت اليها عينيّ مأخوذاً .. وتحركت في نفسي حوادث قديمة نافضة عنها ركاماً من الصدأ ، وتذكرت قصة الفضيحة التي هزت (اللورين) يوم هربت فتاة جميلة ثرية من أسرة عريقة نبيلة مع « مرشح ضابط » من فرقة الخيالة التي كان والد الفتاة قائداً لها .

وكان الفتى الذي هربت معه وسيماً من ابناء المزارعين ، وكانت الفتاة ترقبه وهو يسير مع فرقته في الرواح والجيئة فاحبته .. اما كيف توصلت الى التحدث معه على انفراد ومتى واين كانا يلتقيان وكيف دبرا خطة الهرب ، فهذا ما لم يعرفه احد .

وذات ليلة فرغ الجندي من وظيفته فوافى فتاته في مكان ما ، ثم انطلقا معاً الى مكان مجهول وعبثاً بحث اهلها عنها .. فاعتبروها ميتة..وهأنذا اجدها في هذه البقعة الموحشة البعيدة وبعد خمسين من الاعوام .. فمن يصدق هذا ؟

ورحت اتفحصها وانا اقول مذهولاً :

– تذكرت ، انت مدموزيل سوزان ؟

وهزت رأسها ايجاباً ، والتفتت صوب الباب وعيناها سابحتان بالدموع واشارت الى الرجل الشيخ وقالت :

– وذلك « هو » .

ففهمت انها لاتزال حتى الساعة تحبه ذلك الحب القديم الكبير.

سألتها بصوت رفيق : « وهل كنت سعيدة ؟ » وردت عليّ بصوت انبعث من قلبها : « السعادة كلها ؛ كانت سعادتنا كل ما لدينا .. ولم اندم قط »

وعدت ارمقها مشفقاً دهشاً لهذا الحب القوي العميق الذي لا يموت ...

شابة ثرية تعلق بمزارع بسيط فتبيع الاهل والدنيا وتضرب بحياة القصور وترف الملابس والجواهر والمخادع الغارقة بالعطور والحرير عرض الحائط ، وتتبع فتاها الى اقصى الارض لتأكل خبزه البسيط وتشاركه فراشه الخشن وتسانده في حياته القاسية الجافة ، ثم تظل على حبها ذلك الكبير له . لقد كان هو كل ما شاءته من الحياة .. وكل ما اعطتها الحياة اياه. وكان وحده السعادة التي وشجت حياتها من البداية الى النهاية ولم يكن هناك سعادة اكثر مما اخذت .

ونمت ليلتها في ضيافة الشيخين وانا مؤمن بالسعادة التي تنبع من قلب الانسان .. من ذاته ، من عمق اعماقه .. ولا تشترى قط من اسواق المادة » .

وسكت القاص . وتكلمت احدى السامعات .

قالت : هـــذه امرأة لم تطلب الكثير . . لقد تمنت اشياء محدودة تافهة فنالتها . ولم تكن ذات مطامـــح عريضة .. لعلها حمقاء .

وقاطعتها اخرى في ضيق : حمقاء او غير حمقاء..لقد شربت كاساً لم نذقها نحن !

وساد الصمت من جديد ..

وهناك عند الافق البادي غرقت اشباح كورسيكا في الماء من جديد واختفت عن انظارنا حدود تلك الجزيرة التي أظلّت حباً عظيماً ولعلها لم تظهر الليلة الا لتقطع شكوكنا المتسائلة :

هل يعيش الحب طويلاً ولا يموت ؟

سميرة عزام

هامن منكس الجديدة

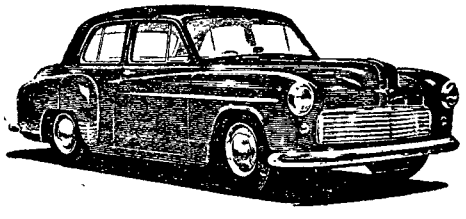

HILLMAN

MINX

الوكلاء : شركة المقاولات والتجارة

بيروت — خان انطون بك